

أمن مصر القومي من طابا إلي رفح
بقلم: د. طه عبدالعليم



أعتقد أن إعادة الوعي إلي المصريين بأن حماية حدود مصر تمثل هدفا لا يدانيه في أسبقيته أي من أهداف أمن مصر القومي تبدو بلا جدال في مقدمة دروس التعلم الإيجابي من إدارة مصر لأزمة 'علامة طابا'، من قبل، وأزمة 'معبر رفح'، من بعد. ومع الأزمة الأخيرة بالذات، تشتد أهمية إعادة بناء الوعي الوطني بشأن الموقف من 'مسألة حدود مصر' في مجابهة نقاش مصري مفتوح جسد في معظمه حالة من فقدان للاتجاه! وظاهرة صوتية عربية أدمنت المزايدة علي أمور تخص المصريين دون غيرهم! وفي هذا السياق أكتفي بالإشارة إلي أربعة حقائق تاريخية ثابتة.

الحقيقة الأولى، أن حماية حدود الدولة قد استمرت من ثوابت الأمن القومي رغم تغير مناهج حماية هذه الحدود، منذ استخدم هذا المفهوم بمضمونه الحديث. وانطلاقا من هذا، ومن أجل بلوغ هدف انسحاب إسرائيل إلي حدود مصر، لم يتردد عبد الناصر في قبول قرار مجلس الأمن ٢٤٢ عقب هزيمة يونيو رغم اتهام 'فصائل الثورة الفلسطينية' له بأنه 'انهزامي' لما تضمنه القرار من اعتراف بإسرائيل مقابل إنهاء الاحتلال! كما لم يتردد في قبول مبادرة روجرز إبان حرب الاستنزاف رغم اتهامه بأنه 'تصفوي' لما تضمنته المبادرة من وقف لإطلاق النار مقابل تسوية سلمية للصراع! وذودا عن حدود مصر اتخذ السادات قرار حرب أكتوبر ثم أقدم علي مبادرة السلام



مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

ليقود مصر إلى عبور بدا مستحيلا في الحرب
كما في السلام، فكان اتهامه بالخيانة والعمالة
من قبل 'جبهة الصمود والتصدي' العربية، ثم
تكفيره واغتياله من جانب جماعات الإرهاب
المصرية! وإيماننا بقدسية حدود مصر لم
يتهاون مبارك في إحباط مساعي إسرائيل الي
تعديل بعض علامات خط حدود مصر الدولية
وفي مقدمتها 'علامة طابا' حتي استردت مصر
آخر شبر من أرضها، ولم يسلم مبارك من
الاتهام بتقويض دور مصر العربي رغم ما
تعرضت له مصر ولا تزال من تهديدات
وإغراءات أمريكية وإسرائيلية حتي تشارك في
تسوية 'لل قضية الفلسطينية تهدر الحقوق
المشروعة للشعب الفلسطيني في حدها الأدنى
كما تضمنته مبادرة السلام العربية!

والحقيقة الثانية، أن مبارك قد تعامل مع اقتحام
معبر رفح بحكمة عكست تفهما واجبا لمعاناة
الشعب الفلسطيني في غزة من ويلات الاحتلال
الإسرائيلي وعقابها الجماعي الذي لم يتوان عن
استخدام سلاح التجويع. وهكذا، غضت مصر
طرفها عن تفجير سياج حدودها واقتحام
الفلسطينيين لأرضها، ثم دعت مصر قادة
حماس للحوار في القاهرة من أجل كلمة سواء
تعيد للحدود المصرية حرمتها واللفصائل
الفلسطينية وحدتها. وتراهن حماس- وبحق هذه
المرّة- علي تجنب مصر خطيئة الاقتتال مع
الشعب الفلسطيني الشقيق، فهي بأي حال من
الأحوال لن تقدم علي ما قام به غيرها من
الأشقاء العرب بدءا من معارك أيلول الأسود
بالأردن ومرورا بمذابح صابرا وشاتيلا في
لبنان ووصولاً إلي جرائم التقتيل في العراق،



علي سبيل المثال لا الحصر! لكن ما لا ينبغي
لحماس- وأنصارها خارج وداخل مصر- الرهان
عليه هو أن تتنازل مصر عن حقها وواجبها في
حماية حدودها وأمنها سواء ضد مغامرات
حماس أو ضد مشروعات إسرائيل، التي تقود
فعليا إلى تصفية قضية فلسطين وتهدد عمليا
حدود مصر التاريخية!

والحقيقة الثالثة، أن حماية حدود مصر كانت

المهمة المقدسة لحكامها منذ عصور الفراعنة.
وقد تعينت هذه الحدود منذ فجر التاريخ ولا
تزال قائمة إلى الآن، شاملة سيناء حتي حدود
فلسطين والنوبة حتي حدود السودان والنواحيات
حتى حدود ليبيا. ويسجل سليم حسن في
موسوعة مصر القديمة، علي سبيل المثال، أن
سنوسرت الثالث (١٨٨٧- ١٨٤٩ ق م) قد قام
بحروب طاحنة دفاعا عن حدود مصر. ونقرأ في
نقوش لوحة 'سمنة' الثانية، والتي من أهم ما
تركه لنا قدماء المصريين في كل عصورهم:
لست بالرجل الذي يرضي لبه بالتقاعس عندما
يعتدي عليه أهاجم من يهاجمني حسب ما
تقتضيه الأحوال. وأن الرجل الذي يركن إلي
الدعة بعد الهجوم عليه يقوي قلب العدو.
والشجاعة هي مضاء العزيمة والجبن هو
التخاذل وإن من يرتد وهو علي الحدود جبان
حقا.. وكل ولد أنجبه ويحافظ علي هذه الحدود
التي وصل إليها جلالتي يكون ابني وولد جلالتي
والحقه بنسبي وإن من يحافظ علي تخوم الذي
أنجبه يكون منتقما لأبيه حقا أما من يتخلي
عنها ولا يحارب دفاعا عن سلامتها فليس ابني



ولم يولد من ظهري والآن تأمل فإن جلالتي قد
أمر بإقامة تمثال عند هذه الحدود التي وصل
إليها جلالتي حتى تنبعث فيكم الشجاعة من
أجلها وتحاربون للمحافظة عليها. ولا غرابة
إذن أن غني المصريون له باعتباره الواحد
الفريد ذو القوة الفتية الذي يزود عن حدوده،
ورددوا! ما أعظم اغتباط أراضيك! وقد ثبت
حدودها!، وأنشدوا لقد جاء إلينا وأخذ الأرضين
تحت حمايته ومنح الأرضين السلام.. لقد جاء
إلينا وحمي حدوده!

والحقيقة الرابعة، أن سيناء، كما كتب جمال
حمدان في 'شخصية مصر' قد تكون غالبا أو
دائما أرض رعاة ولكنها قط لم تكن أرضا بلا
صاحب منذ فجر التاريخ. ومنذ بدأ تاريخ مصر
المكتوب والنقوش الهيروغليفية تثبت الوجود
المصري علي كل حجر. وسيناء مصرية طوال
تاريخ مصر الفرعونية بل منذ العصور
الحجرية. وتحمل سيناء بصمات مصر حضارة
وثقافة وطابعا وسكانا بالقوة نفسها التي يحملها

بها أي إقليم مصري آخر. ويبين سليم حسن في
موسوعته أن شبه جزيرة سيناء، منبع
استخراج النحاس والفيروز، كانت- شأن غيرها
من أقاليم مصر خارج وادي النيل والمتاخمة



مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

لهـ جزءاً من مصر منذ عهد الدولة القديمة،
وإن تطلبت يقظة مستديمة من قبل فراعنة
مصر الذين كانوا يراقبون عن كثب كل حركات
الأقوام والقبائل التي كانت تهدد البلاد من حين
إلى حين، ويقضون على كل حركة عدائية من
هذا النوع. وكانت مصر تجد كفايتها في ترابها
الوطني، وضمنه سيناء، ولم تخرج مصر عن
نطاق حدودها إلا حين هددت حدودها إحدى
ممالك الجوار، كما جري في عهد بيبى الأول
في الدولة القديمة في حملته التي استهدفت منع
المهاجرين الآسيويين من بلاد ما بين النهرين
من دخول مصر بعد أن وصلوا إلى فلسطين
والحدود المصرية، لكن سيطرة كل من
أمنمحات الأول و'سنوسرت الأول' لم تمتد قط
كما نعلم من قصة 'سنوهيت' لأبعد من شبه
جزيرة 'سيناء'. وأما الحملة التي قام بها
سنوسرت الثالث في فلسطين فتسجلها لوحة
خوسبك التي يقول فيها: 'سار جلالته نحو
الشمال ليهزم' الآسيويين'. ولم يبدأ عصر
الفتوح العظيمة للمصريين وتأسيس
الإمبراطورية المصرية إلا في سياق حروب
مصر للتحرر من استعمار الهكسوس وبناء
خطوط دفاع أمامية استندت إلى تحالفات مع
حكام الشام تعززت بالسيف والذهب!